الأستاذ بيرم كمال

مقياس المجتمع الجزائري وفعالياته

الستة الأولى ماستر حديث

المحاضرة 10

وسائل الحكم في الجزائر العثمانية

أدت ضالة العنصر العثماني بالجزائر والحاجة الى فعاليات المجتمع الجزائري في الريف والمدينة الى استحداث أدوات حكم بالاهالي خاصة بداية الوجود العثماني واتساع الخطر الاسباني،ومن بين أدوات الحكم الاستعانة بقبائل المخزن،فمن تكون هذه القبائل التي استمرت ادات وواسطة قوية بين السلطة وسكان الاريف وضامن لجباية الضرائب وفرض الامن واستمرار نفوذ الدولة في المناطق البعيدة عن مركز السلطة بالعاصمة او البايليكات.

قبائل المخزن:

قبائل المخزن ويمكن ان نعرفها من حيث تكوينها , بأنها عبارة عن تجمعات سكانية إصطناعية متمايزة في أصولها , مختلفة في أعراقها فمنها من أقرها الأتراك بالأراضي التي وجدت عليها , لتكون سندا لهم , ومنها من أعطيت لها الأرض لتستقر عليها , و منها من أستقدم كأفراد مغامرين أو متطوعين من جهات مختلفة , و بعضها يتكون من القبائل الممتنعة , و المستقلة أرغمت في فترات معينة عن طريق القوة للدخول إلى هذا الحيز إلا أنها لم تلتزم بالوضع الذي فرض عليها , إذ كلما شعرت بضعف الادارة تقوم بشق عصا الطاعة , وتتخلى عن وضعها المخزني , لتعود لوضعها الأصلي ., تواجدت القبائل المخزنية في مناطق الطرق السلطانية، وفي الطرق الي تربط دار السلطان بباقي البايلكات[6]، كالطريق الرابط بُدار السلطان وقسنطينة مثال، حيث نجد العديد من القبائل المخزنية، كقبيلة الزواتنة المتواجدة

قربواد يسر، و تتواجد أيضا في مناطق من عاصمة البايلك وفي تبسة وعنابة وباتنة، حيث كانت هذه الطرق تحت الرقابة المخزنية المباشرة، حيث تواجدت قبائل الزمالة والدوائر[7]، كالزمالة الي كانت في سهل عُين مليلة وواد الساحل قرب فرجيوة وواد الزناتي .[8]

وتموقعت هذه القبائل في النقاط الحساسة، وذات الأهمية للإدارة العثمانية كمناطق تواجد الأبراج واحصون التابعة للإدارة، كقبيلة عمراوة قرب برج سباو، كما وجدت بنقاط العبور كالجسور والخوانق والممرات الجبلية كقبيلة عريب قرب شر سور الغزلان، وكذا مضيق وادي يسر بالأخضرية المحروس من طرف قبيلة حرشاوة والزواتنة [55] و قد اختلف اعتماد السلطة على قبائل المخزن من فترة إلى اخرى , و يمكن ان نقول أنه مر بثلاث مراحل , اولها تبتدئ مع إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية , و يستمر طيلة القرن 16م,و تميزت بعدم أو قلة الإعتماد على هذه القبائل لأسباب عديدة منها--الاعتماد على فرق الاوجاق وانعدام الخبرة بالنسبة لهم في هذا الميدان , رغم أن هذه القوات المحلية و الاستعانة بها كان تقليدا معروفا في الجزائر منذ أوائل الفترة الإسلامية و ثانيها هي فترة القرن 17م , وما ارتبطت بها من تصرفات حكام الجزائر من الباشوات, فقد تسببت سياستهم الجبائية في استنزاف موارد الريف الاقتصادية , و ذلك لحاجة الباشوات للثروات الطائلة ليعوضوا ما دفعوه من أموال مقابل الحصول على منصب الباشوية , إضافة إلى أنها برهنت أثناء المعارك على كفاءتها و فعاليتها. أما المرحلة الثالثة و الاخيرة تبتدئ بالقرن 18م و تنتهي بالغزو الفرنسي و في هذه المرحلة زاد اهتمام الأتراك بداخل البلاد,نتيجة ضغوط خارجية , و احتياجات مادية ملحة. بعد ان شحت موارد الإتاوات , و تناقصت غنائم النشاط البحري , فلم يعد [9]نشاط قبائل المخزن يقتصر على المحلات فقط, بل أكثر من ذلك أصبحت

الساعد الأيمن , و الوسيلة الفعالة لتدعيم الإجراءات الإدارية و الحربية , وهذا ما زاد في ارتباطها بأنظمة الحكم , فأصبح امتداد نفوذ البايلك داخل البلاد يقاس بمدى نشاط هذه القبائل)5(.

مثل قبائل نزليوة في أعالي وادي يسر, التي كان رجالها يشكلون فرق الصبايحية , التي وضعت تحت قيادة قائد برج بوغني , بمنطقة القبائل , فقد اعتدت على القيام ببعض الانتفاضات وهذا ما دفع السلطة إلى شن عدة حملات عسكرية ضدها , و كانت أعنفها في عام 5755 م إثر اعتداء بعض أفرادها على المسافرين ببني عائشة , و تمكن يحي آغا , في نهاية الأمر , من إخضاعها وتحويلها لقبائل المخزن و شكلت منها الإدارة فرق الزمالة لتؤلف بذلك جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة العثمانية , بل أصبحت في أواخر العهد العثماني تؤلف رابطة متينة تشد المحكوم بالحاكم , وتبقي على تماسك الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية في الريف

وبفعل الانتساب والاستقرار و النشأة على أراضي البايلك , اكتسبت هذه المجموعات البشرية المعروفة بقبائل المخزن كيانا مستقلا متمايزا , و لم تعد تعرف من أنسابها القديمة , و مواطنها الأصلية إلا ما علق بتسمياتها الجديدة كقبائل الصحا ري و الغزارلة,و هاشم و العبيد , فحين اتخذت الغالبية الكبرى من قبائل المخزن تسميات محلية وألقابا خاصة , بل استمدتها من مواطنها الجديدة ,أو اشتقتها من الوظائف التي كانت تمارسها , و المهام التي كانت تقوم بها , أو استعرتها من نوع السلاح الذي كانت تحمله , فمثلا مخزن المكاحلية عرف بذلك لنوع السلاح الذي اشتهرت به فرسانه , و المجموعات المخزنية من الدوائر و الزمول عرفوا بهذه الأسماء نظرا للمهام التي كانوا يمارسونها , والتنظيم الذي كانوا يخضعون له, والحيز الإداري الذي استقروا ضمنه.

وضعت الإدارة تنظيما محكما لتسيير قبائل المخزن , و إخضاعها لإرادتها , فكان الدايات و البايات يعينون على رأس قبائل المخزن , و ذلك حسب وضع كل واحدة منها, شيوخا , قيادا , و آغوات , و خلفاء البايات, و كانت هذه التعيينات خاضعة لمقاييس و معايير معينة , فالقبائل القوية و المتنفذة, كان يسمح لها بأن تعين شيوخها بنفسها) 2(, أما قبائل الزمول و العبيد , و الد واير ,فالإدارة هي التي كانت تتولى تعيين رؤسائها, ومهما كانت طريقة التعيين , فإن المعينين كانوا مطالبين بدفع مبلغ من المال , حق تقليد القندورة,فكان آغوات الدواير مثلا يدفعون للباي

.

ألف ريال بوجو , أما آغوات الزمالة ,فكانوا يدفعون عشرين ألف بوجو, و علاوة على مبلغ التعيين , كان الآغوات يدفعون حوالي نفس المبلغ كل ستة أشهر للبقاء في مناصبهم. أما من حيث النشاط الذي كانت تقوم به قبائل المخزن فكان يغلب عليها الطابع العسكري خاصة قبائل الزمول , و العبيد,و الدواير, في كثير من الأحيان ,إلا أنها كانت هي الاخرى تمارس نشاطا فلاحيا في أوقات السلم . كان تمركز القبائل المخزنية ينحصر في المواقع الاستراتجية , فهي توجد في المحاور الكبرى للمواصلات مثل الطريق السلطاني الذي يربط العاصمة بالبايلكات. و يمكن أن نخلص محطات التمركز الجغرافي في العناصر التالية: كلفت بحراسة الابراج و الحصون و الممرات الصعبة , وأماكن العبور والمسالك الرئسية الواصلة بين مراكز البايلكات , و عند الطواحن الهوائية , و الاسواق الموسمية,عند التقاء المحلات الفصلية عند توجهها لجمع الضرائب , من بين هذه القبائل عمراوة ببرج سباو , وام نائل يسر , والخشنة ببرج ثنية بني عاشة بالقرب من الخوانق

الجبلية و الممرات , وعند القناطر و الجسور , ومن أهم الممرات, و الفجاج الجبلية التي استقرت بها قبائل المخزن مثل مضيرة بوادي يسر , تحرسه حرشاوة و زواتنة أما عن الدور الرئيسي الذي كانت تقوم به قبائل المخزن , فأنها كانت مطالبة بتوفير الفرسان لتدعيم الحاميات العسكرية المرابطة في مختلف جهات البايلك , و ذلك لقلة عدد الجند التركي الذي لم يكن يزيد في أوقات السلم عن 4555 جندي, و في أوفات الحرب لم يتجاوز محارب بما فيهم الكراغلة, و فرق الزواوة بينما أصيحت قبائل المخزن بعد انضمام العشائر القوية إليها توفر للبايلك قوة محاربة يصل عددها في بعض الأوقات 35.555 رجل منهم 51.555 فارس و محارب كما أنها كانت تقوم بتعزيز المحلات العسكرية أثناء خروجها إلى الأرياف لجمع الضرائب , كما أنها كانت تشارك في الحملات التأديبية , التي كانت توجه ضد القبائل المتمردة , و كان عدد الفرسان , الذين تجندهم كل قبيلة مرتبطا بالكثافة السكانية لكل قبيلة , فكانت الأوطان التابعة لدار السلطان , بما فيها قبيلة الزواتنة, المشكلة أساسا من الكراغلة , و المكلفة بحراسة سهل متيجة من غارات القبائل الجبلية , بإمكانها تجنيد في أوقات ثمانية ألاف فارس ومقابل هذه الخدمات كانت قبائل المخزن تحظى ببعض الامتيازات , وتنال بعض الحقوق دون بقية سكان ألأرياف فالتمتع بالأمن و الحماية من طرف سلطات البايلك , و الإعفاء من المطالب المخزنية , و الضرائب الإضافية كاللزمة , والغرامة , و الحكور و المعونة و الاكتفاء بتقديم بعض المساهمات العينية الخفيفة التي لم تكن تتجاوز سدسي المحصول , وفي بعض الأحيان لا تتعدى حصان واحد, و بعض الخراف مع دفع الضريبة الشرعية العشر و الزكاة زيادة إلى تلقي المخزن المنح و التجهيزات مجانا من الدولة كالسلاح و المؤونة , و و سائل النقل و غير ذلك , اضافة إلى منحهم اقطاعات

زراعية في حالة مشاركتهم في المحلات العسكرية رغم ذلك هناك أثر ايجابي لقبائل المخزن في بعض النواحي , و هو مساهمتها في انتشار اللغة العربية , و شجعوا على شيوع البداوة و التحول من ممارسة الزراعة إلى تربية المواشي,و إن كانت بعض عشائر المخزن حاولت الاستقرار بالجهات التي تقيم بها لممارسة الفلاحة .

على كل فإن قبائل المخزن كاداة لادارة الأهالي بالاهالي شكلت في مراحل التاريخ العثماني بالجزائر نموذج لاستمرار نفوذ القبائل المحاربة الاجواد التي بسطت سلطتها على باقي القبائل سواء في ظل السلطة او خارجها وبقدر قوة السلطة كان مقدار سلطتها على مناطق نفوذها وأصبحت في نهاية العهد العثماني بمثابة الدركي الساهر على مصالح البايلك و القوة الفعالة التي يستخدمها الحكام في ابقاء نفوذهم و الانتفاع بثروات الجهات الاكثر غنى كسهل متيجة و سباو, و فرجيوة مقابل ما منح لها من امتيازات عن غيرها من القبائل.

,